

التبيان في تفسير القرآن

(167) إِنْ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) آية بلاخلاف. حكى إِبْنُ تَعَالَى عَنْ يَعْقُوبَ أَنَّهُ قَالَ لَبْنِيهِ حِينَ أَنْفَذَ إِخَاهُمْ مَعَهُمْ " يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ " وَقِيلَ فِي سَبَبِ قَوْلِهِ ذَلِكَ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكَ، وَالسَّدي، وَالْحَسَنُ: أَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي صُورٍ حَسَنَةٍ وَجَمَالٍ وَهَيْبَةٍ. وَقَالَ الْجَبَائِيُّ: أَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِمْ حَسَدَ النَّاسِ لَهُمْ، وَإِنْ يَبْلُغُ الْمَلِكُ قُوَّتَهُمْ وَشِدَّةَ بَطْشِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ مُحَوِّفًا عَلَى مَلِكِهِ، وَانْكَرَ الْعَيْنَ. وَقَالَ لَمْ تُثَبِّتْ بِحُجَّةٍ. وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَقُولُ الْجَهَالُ الْعَامَّةُ. وَالَّذِي قَالَهُ غَيْرُ صَحِيحٍ فِي أَمْرِ الْعَيْنِ بَلْ غَيْرُ مَنْكَرٍ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَ الْمَفْسُورُونَ. صَحِيحًا، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (الْعَيْنُ حَقٌّ)، وَأَنَّهُ عَوِذُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ (ع)، فَقَالَ فِي عَوِذَتِهِ: (وَأُعِيزُكُمْ مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ) وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِهِ. وَاخْتَارَهُ الْبَلْخِيُّ، وَالرَّمَانِيُّ وَكَثَرُ الْمَفْسُورِينَ، وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ إِبْنُ تَعَالَى أَجْرَى الْعَادَةِ لَضَرْبِ مِنَ الْمَصْلُحَةِ أَنَّهُ مَتَى مَا نَظَرَ إِنْسَانٌ إِلَى غَيْرِهِ عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ اقْتَضَتْ الْمَصْلُحَةُ إِهْلَاكَهُ أَوْ إِمْرَاضَهُ أَوْ اتِّلَافَ مَالِهِ، فَالْمَنْعُ مِنْ ذَلِكَ لِأَوْجِهِ لَهُ. وَقَوْلُهُ " وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ " اعْتِرَافٌ مِنْهُ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْأَمْرَ، وَلَا يَغْنِي عَنْهُ يَرِيدُهُ إِلَّا بِسُوءٍ. وَالْغِنَى ضِدُّ الْحَاجَةِ. وَقَوْلُهُ " أَنْ الْحُكْمَ إِلَّا اللَّهُ " أَيِ لَيْسَ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الْأُمُورِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحُكْمَةُ إِلَّا اللَّهُ. وَقَوْلُهُ " عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ " أَيِ فَوَضْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ يَدْبِرُهُ كَيْفَ يَشَاءُ. وَالتَّوَكَّلُ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.